الأدب الجاهلي

كلمة أدب من الكلمات التي تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة. وقد تنقلت من معنى لمعنى حتى اتخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم. وللوصول إلى تعريف الأدب لا بد أن نقف على تطور دلالة الكلمة عبر العصور.

• العصر الجاهلي: (قبل الإسلام بـ150 سنة).

لمْ تَرِدْ كلمة (أدب) بالمعنى المتعارف عليه الآن، لكنها وَرَدتْ في الشعر بكلمة (آدِب) بمعنى الداعي إلى الطعام يقول طرفة بن العبد:

نَحنُ في المَشتاةِ نَدعو الجَفَلى لا تَرى الآدِبَ فينا يَنتَقِر

و مِنْ ذلكَ أيضا (المأدبة) بمعنى وليمة الطعام التي يُدعى إليها الناس و اشتقوا منها (آدب) بمعنى الداعي إلى الوليمة. وهذا يعني أن دلالة الكلمة كانت دلالة حسية في العصر الجاهلي.

• عصر صدر الإسلام: (من بعثة النبي صلى الله عليه و سلم و حتى وفاة علي بن أبي طالب).

أُستُخْدِمَت كلمة أدب على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربي فأحسنَ تأديبي". حينَ قال علي – رضي الله عنهُ-: يا رسول الله نحنُ بنو أبٍ واحد و نراك تُكلم العرب بما لا نفهمه".

ونجد الشاعر المخضرم سهم بن حنظلة الأموي يستخدمها في هذا العصر بنفس المعنى (الأدب، حسن الخلق). إذ يقول:

لا يُمنع الناس منّي ما أردتُ ولا أعطيهم ما أرادوا حُسن ذا أدبا.

ونجد الكلمة أيضا في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن هذا القرآن مأدبة الله، فأقبلوا من مأدبته ما استطعتم. . . ".

وهذه النصوص تُشير إلى ذيوع استخدام الكلمة في العصر الإسلامي و أنَّها اكتسبت معنىً إضافيا إلى جانب المعنى الحسي، وهو (معنى ذهني) يتعلق بالجانب الخُلقي التهذيبي فقد كانت تعني الخلق الكريم.

• العصر الأموي (40هـ – 132هـ).

ظلَّت الكلمة تدل على المعنى التهذيبي السابق إلا أنها أخذت تكتسب معنىً تعليميًا حينَ وُجِدَت طائفة من المعلمين باسم (المؤدبين). كانَ هؤلاء يعلمون أبناء الخلفاء ما تطمح إليه أنفس آبائهم من معرفة و ثقافة، فكانوا يلقنونهم الخطابة و الثقافة و أخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية و الإسلام. و هذا توسع ثانٍ في استخدام الكلمة إذ اكتسبت معنى تعليمي.

• العصر العباسي: (132هـ – 656هـ).

في هذا العصر يتقابل المعنى التهذيبي و المعنى التعليمي، فنجد عبدالله بن المقفع يكتب رسالتين تتضمنان ضروبًا من الحكم و النصائح الأخلاقية و السياسية بمسمى:

(الأدب الصغير) و (الأدب الكبير). كما نجد أبا تمام يسمي الجزء الثالث من ديوان حماسته التي جمع فيها مختارات من طرائف الشعر بمسمى (باب الأدب). و كذلك البخاري يعقد كتابًا في صحيحه بمسمى (الأدب). و هذا يُشير إلى ذيوع

Scanned with CamScanner

الكلمة و كثرة تداولها بالمعنى التهذيبي التعليمي. و التوسع في استخدامها لتدل على المعنى التعليمي التثقيفي عندما نحو بالكلمة وجهة معرفة أخبار العرب و أشعارهم، و بهذا المعنى كتبوا كتبًا سموها أدبًا. مثل (البيان والتبيين) للجاحظ. و (الكامل في اللغة والأدب) للمبرد. و (العقد الفريد) لابن عبدربه. و كتاب (زهر الآداب) للحصري.

وفيما بعد شهدت العصور اللاحقة اتساع التأليف في العلوم اللغوية و الثقافية وصار مفهوم كلمة أدب دالًا على ثقافة لغوية عربية جامعة.

• ما بعد العصر العباسي:

تطرَّق ابن خلدون (ت808هـ) إلى مفهوم كلمة أدب في مقدمته. فقد عقدَ في مقدمته فصلًا في علوم اللسان العربي تناول فيه النحو و اللغة و البيان (علوم اللغة) ثمَّ الأدب، فعدَّ الأدب علمًا من علوم اللسان و قال بأنه لا موضوع لهُ و إنما المقصود به عند أهل البيان ثمرته و هي الإجادة في فني: المنظوم، و المنثور، على أساليب العرب و مناحيهم. ثمَّ انتقل إلى تعريفٍ آخر، يقول:

"ثمَّ إنهم إذا أرادوا تعريف هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب و أخبارهم و الأخذ من كل علمٍ بطرف، يريدون علوم اللغة أو العلوم الشرعية.. ".

وكأنَّ ابن خلدون يعود بالمصطلح مرة أخرى إلى جذوره في العصرين الإسلامي و الأموي حين كانت الكلمة تعني التهذيب و تعلم أشعار العرب و أخبارهم.

وبهذا العرض لدلالة الكلمة خلال العصور المختلفة يتضح أنها تتسع دلاليا وتضيق تبعًا لاختلاف العصور، فتشمل كل أنواع المعرفة حينًا وينحسر معناها عند حدود الكلام الجيد من المنظوم و المنثور حينًا آخر.

ومنذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، أخذت الكلمة تدل على معنيين: (معنى عام، ومعنى خاص). فالأدب بالمعنى العام يدل على كل ما يُكتب في اللغة مهما كان موضوعه ومهما يكن أسلوبه، سواءً أكان علمًا أم فلسفة أم أدبًا صرفا. فكل ما ينتجه العقل والشعور يُسمى أدبًا.

أمّا الأدب بالمعنى الخاص فيُطلق على الأدب الخالص الذي يُراد به التعبير عن معنى من المعاني تعبيرًا فنيا جميلًا ومؤثرًا في عواطف القارئ والسامع. على نحو ما هو معروف في صناعتي الشعر وفنون النثر الأدبية مثل الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات و المقامات.

Scanned with CamScanner

المعلقـــات

المعلقات: قصائد محكمة النسج جيدة المعنى، اختيرت من بين القصائد الجاهلية؛ لتكون مثالاً يحتذى ونهجاً يتبع.

وقد عرف الناس قدر المعلقات وقيمتها فقدموها على غيرها وجعلوا شعراءها أئمة للشعراء في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور، وما زال المتذوقون للشعر يعترفون بتقدم شعراء المعلقات. ويعتري الغموض الطريقة التي اتبعت في اختيار المعلقات من بين أشعار العرب كما يمتد ذلك الغموض إلى الراوي لتلك المعلقات أو المختار للمعلقات، على أن الرأي الراجح في ذلك هو الرأي القائل بأن حماداً الراوية هو الذي اختار تلك القصائد من مجموع الشعر الجاهلي لما تتمتع به من التقدم على غيرها[1]، وقيل سميت تلك القصائد بالمعلقات؛ لأنها علقت بأستار الكعبة، وتعليق الشعر الجيد على الكعبة ليس غريباً فمن عادة العرب أن يعلقوا الأمور المهمة على الكعبة؛ فعندما طال النزاع بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش اتفقت قريش فيما بينها على أن تقاطع بني هاشم فلا يزوجونهم، ولا يتزوجون منهم، ولا يبيعونهم شيئاً ولا يشترون منهم شيئاً، وتعاهدوا على ذلك وكتبوا ذلك العهد في صحيفة علقوها في جوف الكعبة[2].

ومن أسماء المعلقات السموط وهي العقود؛ فالعرب يشبهون القصيدة الجيدة بالعقد الذي يعلق في صدر الحسناء، والسموط تأخذ معنى المعلقات

---

(١) القصائد التسع المشهورات ٢/٦٨٢.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٧٥.

Scanned with CamScanner

لأن السموط تعلق مثلها. ومن أسمائها المذهّبات لأن تلك القصائد تكتب بماء الذهب قبل تعليقها.

ومن أسمائها : القصائد المشهورات؛لأنها اشتهرت أكثر من غيرها، وسميت أيضاً السبع الطوال الجاهليات، والتزم بهذا الاسم من رأى أن المعلقات سبع، ومن أسمائها القصائد التسع ويطلق هذا الاسم من يرى أن القصائد المشهورة تسع، ويطلق على المعلقات القصائد العشر ويختار هذا الاسم من يرى أن القصائد عشر[1]. فعدد المعلقات مختلف فيه ولكن عدداً من الذين دونوها أو شرحوها يرون أنها سبع.

وأصحاب المعلقات الذين اتفق عليهم أكثر الرواة هم : امرؤ القيس، وطرفة، وزهير، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، ولم يحدث خلاف في هؤلاء الخمسة فهم أصحاب معلقات باتفاق رواتها، أما السادس والسابع فهما عنترة والحارث بن حلزة عند أكثر رواة المعلقات، أما أبو زيد القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب فقد جعل النابغة والأعشى من أصحاب السبع وأخرج عنترة والحارث بن حلزة وجعلهما من أصحاب المجمهرات وهي قصائد أقل قيمة من المعلقات[2] وقد أثبت النحاس الأعشى والنابغة بعد أن انتهى من شرح القصائد السبع[3].

وجاء التبريزي فأثبت ما أثبته النحاس وأضاف شاعراً عاشراً لأصحاب المعلقات هو عبيد بن الأبرص، وعلى رأي التبريزي تكون المعلقات عشراً، ولم يقل أحد إنها أكثر من عشر، وهؤلاء هم أصحاب المعلقات ومطالع قصائدهم :

١ - امرؤ القيس ومطلع معلقته :

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل بِسَقْطِ اللوَى بينَ الدُّخولِ فَحوْمَلِ

---

(١) انظر العمدة لابن رشيق ١/٩٦. (٢) انظر أول الجزء الثاني من جمهرة أشعار العرب.
(٣) القصائد التسع المشهورات ٢/٦٨١.

Scanned with CamScanner

٢ ـ طرفة بن العبد البكري ومطلع معلقته :

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقي الوَشْمِ في ظَاهِرِ اليَدِ[1]

٣ ـ زهير بن أبي سلمى المُزني ومطلع معلقته :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ[2]

٤ ـ لبيد بن ربيعة العامري ومطلع معلقته : :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِمِنىً تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا[3]

٥ ـ عمرو بن كلثوم التغلبي ومطلع معلقته :

أَلا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا ولا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِينَا[4]

٦ ـ عنترة بن شداد العبسي ومطلع معلقته :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ من مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ[5]

---

(١) الأطلال: ما شخص من آثار الديار. البرقة: حجارة يخالطها رمل. وثهمد: هضبة قرب القاعية في عالية نجد. الوشم: الخضاب.

(٢) الدمنة: الأثر والرماد. وبحومانة الدراج: اسم موضع في شمالي القصيم قريب من القيصومة (قيصومة النباج) والمتثلم: جبل في الجواء في القصيم.

(٣) عفت: درست. المحل: الموضع والمكان. والمقام: الإقامة. منى: هضبة حمراء فيها ماة قريبة من بلدة نفي وتبعد عن الدوادمي تسعين كيلا من جهة الشمال. تأبد: توحش. غول: جبل أحمر فيه ماء ويقع جنوبي منى ويبعد عنها أربعين كيلا. الرجام: هضاب صغار على رؤوسها حجارة وتعرف اليوم باللجام وتقع بين غول ومنى.

(٤) هبي: أي قومي من نومك. والصحن: القدح القصير الحيطان. اصبحينا: قدمي لنا الصبوح وهو ما يشرب في الصباح. الأندرين: موضع بالشام مشهور بجودة خموره. ويقصد بقوله: ولا تبقي خمور الأندرينا: أي لا تخفي الخمر الجيدة وتعطينا الرديئة.

(٥) يقال: ردمت الشيء: أي أصلحته. ومعنى (هل غادر الشعراء من متردم) أي هل ترك الشعراء معنى لم يطرقوه!

Scanned with CamScanner

٧ـ الحارث بن حلزة اليشكري ومطلع معلقته :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ[1]

٨ـ الأعشى : ميمون بن قيس ومطلع معلقته :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ

وقد جعل أبو زيد القرشي معلقة الأعشى القصيدة التى مطلعها :

ما بكاءُ الكَبِيرِ في الأَطْلالِ وسُؤَالِي وَمَا تَرُدُّ سُؤَالِي[2]

٩ـ النابغة الذبياني ومطلع معلقته :

يادَارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْها سالِفُ الأَبَدِ[3]

ويرى أبو زيد القرشي أن معلقة النابغة هي القصيدة التي مطلعها :

عُوجُوا فَحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدَّارِ ماذَا تُحَيُّونَ من نُؤْيٍ وأَحْجَارِ[4]

١٠ ـ عبيد بن الأبرص ومطلع معلقته :

أَقْفَرَ من أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فالقُطَبِيَّاتُ فالذَّنُوبُ[5]

وقد اعتنى العلماء بشرح هذه المعلقات عناية كبيرة فشرحوا غريبها وأعربوا ألفاظها وشرحوا أبياتها؛ ومن أولئك الذين اعتنوا بالمعلقات : أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري المتوفى سنة ٣٢٧ هـ، وأحمد بن محمد

---

(١) آذنتنا: أخبرتنا. البين: الفراق. والثاوي: المقيم.

(٢) يقول: ما بكاء شيخ كبير مثلي وسؤالي من لا يرد عليّ.

(٣) العلياء: الأرض المرتفعة. السند: ما علا من سفح الجبل. أقوت: خلت من أهلها. الأبد: الدهر.

(٤) عوجوا: قفوا. الدمنة ما بقي من آثار الديار. النؤي: حفر حول الخباء لمنع المطر من الدخول في الخيمة.

(٥) ملحوب: منهل في شمالي القصيم يبعد عن بريدة ستين كيلا.
القطبيات: هضاب فيها ملازم ماء في غربي القصيم وهي قريبة من سواج.
الذنوب: ثلاث هضاب غرب بلدة عفيف بما يقارب تسعين كيلا.

Scanned with CamScanner

النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ والحسين بن أحمد الزوزني المتوفى سنة ٤٨٦هـ ويحيى بن علي التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ فأهم شروح المعلقات هي هذه الشروح. وهناك شروح كثيرة غير هذه، فالمعلقات من الشعر الذي حظي بعناية الباحثين على مر العصور.

أسئلة:

- ما المعلقات، ولم سميت بذلك ؟
- اشتهرت المعلقات بأسماء كثيرة اذكرها .
- اذكر مطالع المعلقات العشر مع ذكر أصحابها .
- كيف كانت تعلق المعلقات ؟

Scanned with CamScanner

قضية الصعلكة

كثر الحديث عن ظاهرة الصعلكة في الشعر الجاهلي واختلفت الآراء حول الشعراء الصعاليك، ويهمنا في هذا المجال أن نتبين أهم المحاور الرئيسة التي تعني الدارس بعيداً عن التفريعات التي لا طائل تحتها :

ما المقصود بالصعلكة :

ـ الصعلكة لغة تعني الفقر ، ولسان العرب يشير إلى أن الصعلوك هو الذي لا مال له ولا اعتمار، و قد تطورت دلالة هذا المصطلح بحيث أصبح يدل على طائفة من الشعراء ممن كان يمتهنون الغزو والسلب والنهب .

ـ والصعلكة ظاهرة اجتماعية برزت على هامش الحياة الجاهلية كرد فعل لبعض العادات والممارسات ، حيث كان البعض من العرب يأنفون من إلحاق أبنائهم من الإماء بنسبهم، وهؤلاء يسمون « أغربة العرب » فكانوا يتمردون على ذويهم ويلوذون بالصحراء.

هذه طائفة، أما الطائفة الثانية فكانت تتكون من تلك الزمرة الخارجة على أعراف القبيلة والمتمردةعلى مواضعاتها والمنتهكة لمواثيقها، وهؤلاء كانت تخلعهم قبائلهم فيسمون « الخلعاء »، والطائفة الثالثة كانت من اللصوص المحترفين الذين يعيشون على الإغارة ويقتاتون من ورائها، وهذه الطائفة كانت تضم قبائل بأكملها مثل قبيلتي فهم وهذيل .

هل حركة الصعاليك ذات مضمون إنساني وإطار اجتماعي ؟

ـ يرى العديد من الباحثين المعاصرين ومنهم محمد مصطفى هدارة ويوسف خليف وأحمد الحوفي وشوقي ضيف وغيرهم أن هذه الحركة ذات مضمون اجتماعي إنساني

Scanned with CamScanner

تعمل على وضع الأمور في نصابها، وأنها مظهر من مظاهر الصراع بين الفقراء والأغنياء لذا فهي ذات سمة واقعية تكشف عن حسٍ متوهج يرفض الظلم والقهر ، ويستدلون بالعديد من الوقائع التي تدعم هذا الرأى، والحقيقة أن هذه مسألة تحتاج إلى مزيد من المناقشة ، إذ أن وراءها دوافع أخرى غير الفقر، أما الأدلة التي استدلوا بها فمن بينها أنهم لم يكونوا يهاجمون سوى الأغنياء، حيث حدد أحد الشعراء العصاليك وهو « تأبط شراً » ثلاث شرائح اجتماعية جعلها هدفاً لإغارته هي طائفة أصحاب المواشي ، وأصحاب المزارع الخصيبة، وأصحاب النوق الحوامل إذ يقول :

فـــيـــومًا على أهلِ المواشي وتَارةً لأهلِ رَكـــيبٍ ذي ثَمـــيل وسُنْبُلِ

وأهل الركيب هم أصحاب المزارع ، والثميل هو الحب ، وفي هذا البيت يحدد النوعين الأولين ، أما الطائفة الثالثة فيرد ذكرها في بيت ثالث إذ يقول :

ولكـــنْ لأربابِ المخـــاضِ يشـــفّهم إذا اقـتـفـــــروه واحـداً أو مـشـيـعـاً

وأرباب المخاض أصحاب النوق الحوامل الذين يشقيهم أن يتتبعوا أثره.

ويستشهدون على ذلك أيضاً بما روي عن عروة بن الورد ـ وهو أشهر الشعراء الصعاليك ـ من أنه أصاب امرأة في إحدى غاراته فدخل بها وأنجبت منه، وحج بها، وحين لقيه قومها خيّرها بين العودة إلى أهلها أو البقاء معه فاختارت أهلها وتقبل قرارها راضياً ، وقد شهدت له بحسن المعشر ولكنها ضاقت ذرعاً بما كان يوجه لها من إهانات لأنها سَبيّة .

ومن ذلك أيضاً ما أُشيع عن هؤلاء الصعاليك من عفة وصبر فها هو أبو خراش الهذلي يروض نفسه على احتمال الجوع ، يتعفف عن تناول طعام كانت امرأة من هذيل قد أعدته له على الرغم من جوعه. وها هو عروة الصعاليك إذا أصابت العشيرة سنة قحط يجمع المرضى والضعفاء والمسنين من عشيرته يحفر لهم الآباروبكنف عليهم الكنف، ويرعاهم حتى إذا انقضى الضيق وفاء الناس إلى شيء من خصب وخير لحق كل منهم بأهله .

وفي أشعارهم ما يشير إلى هذا النزوع الإنساني الواضح كأبيات عروة المشهورة التي

Scanned with CamScanner

يقول فيها .

إنى امـــرؤٌ عـــافي إنائي شِركـــة وأنتَ امـــرؤٌ عـــافى إنائِك واحـــدُ

أتهزأُ مـني أنْ سَمِنْتَ وقـــــد ترى بجـــسمي مَسَّ الحقِّ والحقُ جـاهدُ

أُقسِّم جِسـمي في جسـومٍ كـثيـرةٍ وأحـــسو قـــراحَ الماءِ والماءُ باردُ

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه :هل كان كل الشعراء الصعاليك على هذه الشاكلة ؟ وهل كانوا يمثلون حركة منظمة على النحو الذي يشير إليه مؤرخو الأدب ؟

الواضح أنهم لم يكونوا جميعاً على هذا المستوى من الخلق الرفيع والنزوع الإنساني السامي ، بل كان منهم الفاتك الفاجر الذي لا يتورع عن سفك الدماء دون وازع ، ولذا كان حركة الصعلكة في جانب من جوانبها دموية متمردة على الأعراف والقيم .

ولقد استمرت ظاهرة الصعلكة ردحاً من الزمن، وظلّت طائفة من الشعراء الصعاليك تنتمي إلى هذا المسلك الاجتماعي والفني في عصر صدر الإسلام وبني أميّة.

وينقسم الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي إلى طوائف ثلاث :

١- الخلعاء الذين تخلّت عنهم قبائلهم لما ارتكبوه من جرائم وحماقات مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحدادية وأبى الطمحان القيني .

٢- أبناء االحبشيات السود ممن نبذهم آباؤهم مثل السلّيك بن السُّلكة وتأبط شراً والشنفرى وقد سموا بأغربة العرب .

٣- المحترفون أفراداً وقبائل، مثل عُروة بن الورد العبسي وقبيلتي فَهْم وهذيل اللتين كانتا تنزلان بالقرب من الطائف ومكة .

Scanned with CamScanner

الخصائص الفنية لشعر الصعاليك

تدور هذه الخصائص حول محورين : الأول موضوعي والثاني فني ويترتب الجانب الفني على الموضوعي بالضرورة كما سيتضح لنا :

١ ـ فالقصيدة لديهم تدور حول تجربة معينة من تجاربهم العديدة مما أدى إلى بروز الجانب القصصي من ناحية، وتوفر قدر من الوحدة الموضوعية من ناحية ثانية ، الأمر الذي ترتب عليه اختفاء التقاليد المعروفة في بناء القصيدة الجاهلية فلم تعد هناك مقدمات طللية أو غزلية أو خمرية، بل إن الشاعر يعالج موضوعه مباشرة وبإيجاز .

٢ ـ أدى ارتباط أدبهم بواقع حياتهم الموغلة في القسوة والتشرد تحت أقسى الظروف إلى تصوير نوازعهم الداخلية وأحاسيسهم إزاء هذا الواقع القاسي فبرز النزوع إلى شيء من التحليل النفسي وتصوير ردود فعلهم إزاء هذا النمط الصارم من أنماط العيش .

فكانت ظاهرة التقرير والارتجال فخلا شعرهم أوكاد من الخيال الذي ينهض على التجريد وحفل بالتشبيهات الحسية قريبة التناول فلم يعمدوا إلى التجويد الفني أو التأنق اللفظي .

٣ ـ تنتمي غالبية قصائدهم إلى الرجز ، ويرجع ذلك إلى طواعية هذا اللون من الشعر للارتجال وسيرورته بين الناس وشعبيته وارتباطه الوثيق بالكر والفر، والمنازلة، فهو ضرب من ضروب الشعر يرتجز به المقاتلون ، وهو ما يعتبر قريباً إلى طبيعة هؤلاء الشعراء .

ومهما يكن من أمر فإن شعر الصعاليك يظل لوناً متميزاً من ألوان الشعر الجاهلي في ارتباطه الوثيق بالبيئة الصحراوية التي تعتبر مصدراً هاماً من مصادر صورهم وأخيلتهم ومعجمهم اللفظي ، وهذا يفسر ما نلمحه من غرابة وخشونة في ألفاظ بعض قصائدهم .

Scanned with CamScanner

٢١/١٠/٤٣٩ هـ

العصر الجاهلي

لمحة عن حياة العرب في العصر الجاهلي.

(أ) الحياة الاجتماعية:

ينقسم المجتمع العربي في العصر الجاهلي إلى قسمين: بدو وحضر، فالبدو يسكنون الصحاري، والحضر يسكنون القرى والمدن.

فبلاد اليمن عرفت الحضارة والتمدن، ومكة في تهامة مدينة تجارية، ويثرب التي هي المدينة المنورة مدينة تعتمد على الزراعة، وحَجْر في اليمامة مدينة تعتمد على الزراعة والتجارة، وهَجَر التي هي الأحساء مدينة تعتمد على الزراعة.

وقد قامت للعرب تجمعات حضارية في العراق والشام، ففي العراق قامت دولة المناذرة، وفي الشام دولة الغساسنة، ومعيشة العرب تخضع لنوع الحياة التي يعيشونها، ففي المدن حياة فيها نوع من الترف حيث تتوافر الحبوب والزيوت والملابس والفرش وهذا النابغة الذبياني يصور جانباً من حياة علية القوم في جِلَّق حيث يقول:

رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ... يُحَيَّونَ بالريحانِ يومَ السَّبَاسِبِ[1]

تُحَيِّيهِمُ بِيضُ الولائِدِ بَيْنَهمْ ... وأَكْسِيَةُ الإِضْرِيجِ فَوْقَ المَشَاجِبِ[2]

يَصُونونَ أَجْسَاداً قَدِيماً نَعِيمُهَا ... بِخَالِصَةِ الأَرْدَانِ خُضْرِ المَنَاكِبِ[3]

وفي القرى يقتات الناس على التمر والحبوب واللحوم وهي قليلة. وفي البادية يعيشون على ألبان الإبل والضأن. ويعتمد البعض على الصيد بالإضافة إلى الحبوب، والحياة في البادية فيها مشقة، والحصول على القوت في سنوات الجدب ليس سهلاً، ومن هنا كان للكرم دور فعال وأصبح من الصفات التي تنهض بصاحبها وتسمو به إلى مرتبة الشرف.

---

(١) رقاق النعال: أي نعالهم ليست غليظة. طيب حجزاتهم: كناية عن إعفاء الفروج. الريحان: كل نبات طيب الرائحة. يوم السباسب: يوم عيدلهم.

(٢) الولائد: جمع وليدة وهي الأمة الشابة. الإضريج: الخز الأحمر. المشاجب: أعواد تعلق عليها الثياب.

(٣) خالصة الأردان خضر المناكب: نوع من الثياب. والأردان: الأكمام وهي خالصة من نوع واحد أما مناكبها فهي خضر. والأبيات في ديوان النابغة ص٤٧.

Scanned with CamScanner

س٥ / اذكر بحث المثل العليا عند العرب ؟

والعرب لهم مثل عليا يعتمدون عليها في تنظيم حياتهم، وفي علاقاتهم مع بعضهم؛ فمن تلك المثل: حفظ حق الجار سواء كان لاجئاً أو جاراً عادياً، ومنها الوفاء بالعهد، ومنها نجدة المستنجد، وحماية الضعيف، والعفو عند المقدرة، والأنفة وإباء الضيم، وإذا أخل واحد منهم بصفة طيبة تعارفوا عليها فإنهم يعلنون ذلك على الملأ في الأسواق العامة بل يرفعون لواء في سوق عكاظ أوغيره علامة على التشهير به. ولذلك فإن الحادرة الذبياني يعتز بأنه لم يُرْفَع لواء لأحد من قبيلته وذلك في قوله:

أَسُمَيَّ ويحكِ هل سَمِعْتِ بغدْرَةٍ ... رُفِعَ اللواءُ لنا بها في مَجْمَعِ[1]

وبجانب هذه المثل توجد عادات سيئة منها: شرب الخمر، ولعب القمار، يقول طرفة[2]:

ومازالَ تَشْرَابي الخمور ولذَّتي ... وبيعي وإنفاقي طَرِيفي وَمُتْلدي[3]

إلى أن تحامتني العشيرةُ كلُّها ... وأفردت إفراد البعير المُعَبَّد[4]

ومن عاداتهم السيئة: وأد البنات خوف الفقر أو خوف العار إلى غير ذلك من العادات السيئة التى أثرت عنهم.

(ب) الحياة السياسية:

عندما تحدثنا عن الحياة الاجتماعية بيَّنا أن العرب ينقسمون إلى قسمين: بدو وحضر.

وسياسة المجتمعات مرتبطة بتكوينها الاجتماعي فسياسة البدو تختلف عن سياسة الحضر؛ فالبادية تتكون من القبائل، والقبيلة تنقاد لرئيسها الذي نصب نفسه عليها عن طريق اقتناع أفراد القبيلة بالصفات التي يتميز بها ذلك الرئيس، وغالباً ما تكون تلك الصفات الشجاعة والكرم والحلم والعفو والأناة في الأمور. ورئيس القبيلة هو الذي يقودها في الحرب ويدير أمورها في السلم.

---

(١) الحادرة: لقبه واسمه قطبة بن محصن بن جرول بن ذبيان وهو من شعراء الجاهلية. والبيت في المفضليات ٤٥.

(٢) هو طرفة بن العبد بن سفيان البكري، شاعر جاهلي عاش في شرق الجزيرة العربية وتوفي سنة ٦٠ قبل الهجرة.

(٣) الطريف ماجمعه. والتالد ما وصل إليه بالإرث والمعنى صرفت مالي القديم والجديد.

(٤) تحامتني: تركتني. البعير المعبد: الأجرب. والبيتان في شرح القصائد التسع ١/ ٢٦١.

Scanned with CamScanner

ونظام الحضر السياسي يختلف عن القبائل البدوية؛ فسكان مكة من قريش لهم رئيس يخضعون لحكمه ولكنه لا ينفرد بكل شيء وإنما يوزع المناصب التي تدير شؤون مكة بين عدد من أفراد قبيلة قريش؛ فكانت السقاية في بني هاشم، والراية عند أبي سفيان بن حرب، ومساعدة منقطع الحاج (الرفادة) في بني نوفل، وكان مفتاح الكعبة وحجابتها في بني عبد الدار، وكذلك الإشراف على دار الندوة ورئاسة قريش تنتقل من فرد إلى آخر . وقد تولاها أبو سفيان في زمن بعثة الرسول ﷺ وهذا النظام خاص بقريش في مكة فلا هو النظام القبلي ولا هو النظام الملكي السائد في بعض بلاد العرب.

وهناك أنظمة سياسية متشابهة في كل من اليمن والحيرة والشام وشمالي الجزيرة العربية.

ففي اليمن قامت دول كان لها حظ من التنظيم السياسي، وهذه الدول هي دولة معين ودولة سبأ ودولة حمير.

وفي الحيرة (العراق) قامت دولة المناذرة، ومن ملوكها المنذر ابن النعمان والنعمان بن المنذر، وهي إمارة كبيرة وكانت تخضع للفرس ولا تخالفهم.

وفي الشام قامت دولة الغساسنة التي لا يختلف نظامها السياسي عن دولة المناذرة في العراق، وقد قامت هذه الدولة بدعم من الروم .

وهناك دولة كِنْدَة التي شملت شمالي الجزيرة العربية فيما يعرف اليوم ببلاد الجوف وتيماء وحائل والقصيم ويمتد نفوذها – أحياناً – إلى اليمامة، ومن ملوك هذه الدولة الحارث بن عمرو وحُجْر والد امرئ القيس الشاعر، وهو الذي زالت دولة كندة على يده عندما قتله بنو أسد.

(جـ) الحياة العقلية:

إذا تتبعنا شعر العرب وخطبهم وأمثالهم وحكمهم وجدناها تشتمل على ما أنتجته عقولهم من رأي سديد وفكرة صائبة وإشارة لطيفة، وكان الشعر عندهم له شأن عظيم وكذلك الخطابة؛ فالخطيب والشاعر من المقدمين في المجتمع الجاهلي. والعرب ليسوا بمنأى عن الأمم الأخرى، فهم يختلطون بالأحباش والروم والفرس، أما اختلاطهم بالأحباش ففي اليمن، وأما اختلاطهم بالروم ففي سوق دومة الجندل، وأما اختلاطهم بالفرس ففي الحيرة وفي سوق المشقَّر في هجر.

Scanned with CamScanner

وكان عدد كبير من شعراء العرب ومن رؤسائهم وحكمائهم يفدون على النعمان ملك الحيرة، وعلى كسرى ملك الفرس، وعلى الغساسنة بالشام.

وبالإضافة إلى نقل العلوم من الأمم المجاورة فالعرب لهم معارفهم الخاصة التي ابتكروها من عندهم بسبب الحاجة إليها؛ مثل معرفة الأنساب فهم يحفظون أنسابهم ويعلمونها أولادهم؛ لأنهم في الجاهلية يعتمدون على القرابة؛ فالقبيلة هي التي تحمي أفرادها والذي ليس له قبيلة يلجأ إلى قبيلة تحميه، بل إنهم تعدوا ذلك إلى معرفة الأثر ومعرفة الجاني عن طريق أثره في الأرض، وهذه معرفة دقيقة يترتب عليها حفظ الأمن، والدليل على ذلك أن هذه الخبرة القديمة مازالت مستعملة حتى الآن.

وكان العرب يعرفون شيئاً من الطب فيداوون مرضاهم بالأعشاب أو بالكي أو ببعض الأدوية الأخرى التي ينقلونها من الأمم المجاورة. وأما معرفة العرب بالنجوم والأنواء فهي متقدمة فهم يعرفون مواسم الأمطار ووقت زراعة الحبوب والأشجار، وهذه المعارف الجاهلية لازالت سائدة في جزيرة العرب الآن.

ومن معارف العرب الرياضة والفروسية والكر والفر واستعمال أدوات القتال.

Scanned with CamScanner

التهيئة

لقد مرّ الأدب العربي بمراحل وعصور متتالية ومتعاقبة ومتداخلة، وقف مؤرخوه أمام تقسيمها وتحقيبها مواقف متباينة، وتنوعت مناهجه بين مناهج واقعة ومتخيلة، مطبقة ومفروضة. والأدب العربي له واقعه الخاص ومميزاته المتفردة، وله تاريخه الذي لا يشاركه فيه تاريخ آخر من حيث هذه الرقعة الفسيحة التي شملها وهذه الأجيال المتطاولة التي طواها؛ وهو لذلك لا يستجيب استجابة كاملة لأنماط الدراسة في الآداب الأخرى ولا يقاس عليها، ولا بدّ له من المنهج الذي يوائمه والنظرية التي تملك أن تنظمه من أطرافه كلها. فما معنى التحقيب؟ وما المناهج التي ظهرت لتحقيب وتقسيم الأدب العربي؟ ولمَ التقسيم السياسي؟ وما مزاياه وعيوبه؟ ومن هم روّاده؟

ما المقصود بتحقيب الأدب العربي؟

يقصد بالتحقيب، تقسيم الأدب العربي إلى عصور أدبية، وهذا التقسيم قضية من أبرز القضايا التي مازال يشتعل الخلاف حولها حتى يومنا هذا، والدكتور شوقي ضيف هو رائد تقسيم العصور السياسية في دراسة الأدب العربي، حيث بدأ بسلسلته الممتدة في عشرة أجزاء، مرورًا بدراستيه حول الفن الشعري والنثري، وختاما بدراساته عن الأدباء والقضايا الأدبية في مؤلفات خاصة.

والسؤال هنا لِمَ اللجوء إلى التقسيم السياسي؟ ولمَ توضع أسماء العصور وليس الأدباء؟ وإذا كان التقسيم السياسي دقيقًا، لماذا يُعدُّ بشار بن برد من العصر العباسي الأول وهو من العصر الأموي، أي شاعر مخضرم؟ إذا كان كذلك لمَ لا يُعد محمود سامي البارودي من العصر العثماني قياسًا على بشار؟ ثم هل مصطلحا القديم والحديث ثابتان؟ فلكلٍّ قديم في عصره حديث أو معاصر له، لذا فالتسمية بهما ليست دقيقة إلا من باب التقسيم المؤقت. وهل التقسيمات السياسيةً الموجودة في الأدب العربي توازي التقسيمات في الآداب الأخرى؟ وهل التقسيم السياسيّ خاضع للحملات والحروب؟ مما جعل بعضهم يعترض على جعل الحملة الفرنسية على مصر بدايةً للعصر الحديث واعتبار انتصار أكتوبر عام 73م بداية للعصر الحديث، فإذا كان انتصار أكتوبر بداية للتأريخ الأدبي الحديث لِمَ لا تعد انتصارات العرب والمسلمين الكبرى محطات لهذا التقسيم؟ إذن فمعايير التقسيم وهذا الوضع تفتقر الثبات.

نظريات تقسيم الأدب:

لقد ظهرت عدة مناهج ونظريات لتقسيم الأدب العربي، من أبرزها: النظرية **المدرسية**، وهذه النظرية سادت الأدب العربي منذ أخذَ طريقه ليكون دراسة مستقلة، وتقوم على تقسيمه إلى خمسة عصور أدبية، وهي نظرية اعتورها الخطأ وحكمها الهوى وثار عليها المحدثين من مؤرخي الأدب ونقدوها. ونظرية **الفنون الأدبية** التي تعتمد على تصنيف نتاجه في فنون وأنواع أدبية، وتجريده عن هذا العنصر الزماني، وهي نظرية لا تقنع كل حاجة البحث ولا تروي ظمأه. أما نظرية **خصائص الجنس**، فيرى أصحابها أنّ الأدب العربيّ أدب أجناس متباعدة مختلفة، وتأثر بالآداب الأخرى مع نشاط حركة

Scanned with CamScanner

الترجمة، والفتوحات، وبذا تُفْضي هذه النظرية إلى رفضها وتجاوزها. ونظرية **الثقافات** ترى أن الأدب العربيّ عاش في دفقة الثقافات الكثيرة التي التقت في الحياة الإسلامية، وأثّرت عليه وأنه من الممكن دراسة هذا الأدب تبعًا للثقافة التي غلبت على أصحابها فندرس أدب الثقافة الهندية والعربية واليونانية، أي هؤلاء الذين يتمثلون هذه الثقافة ويقبلون عليها، غير أنّ هذه الدراسة وفق هذه النظرية لم تكن منهجًا سليمًا كاملًا يثبت على النقد، ويصبر على المناقشة. ومن المؤرخين من وقف مع نظرية **المذاهب الفنيّة** أي دراسة الأدب وفق الطوابع الفنية التي توزعه، وكان لها مؤيدوها؛ لما لها من أثر في قلب الدراسة الأدبية وتجديدها وتحديدها والقدرة على تبين أهدافها. أما أقلمة الأدب فكانت تدعو لها النظرية **الإقليمية** بدراسة الأدب في كل قطر عربي على حدة، كالشام ومصر والمغرب، وهذه الدراسة لا تُفضي إلى نتائج خصبة، ولا تؤدي إلى غاية تتلاءم مع واقع الحياة الفنيّة التي لم يستطع فيها الأدب العربي أن يكون إقليميًا قط.

ومن خلال استعراض النظريات السابقة نجد أن النظرية المدرسية كان لها حضورها القوي في التأريخ للأدب العربي، ومن أوائل من ألّف فيها حسن توفيق العدل في كتابه تاريخ الأدب، وأحمد الإسكندراني في كتابه الوسيط، وأحمد حسن الزيات في كتابه تاريخ الأدب العربي، وكان لمؤلفاتهم دورٌ في تنشئة الأجيال بمناهجهم التي فرضوها وطرائقهم التي أذاعوها، فقد كان كتاب حسن العدل في دار العلوم هو المرجع الرئيس، وكان كتاب الوسيط للإسكندراني هو المعتمد في مدارس وزارة المعارف بمصر، وكتاب الزيات اعتمدته وزارة المعارف في العراق وغيرها من الأقطار العربية.

وقد قسم تاريخ أدب اللغة العربية (على الأشهر) إلى خمسة عصور:

1- عصر الجاهلية.

2- عصر ابتداء الإسلام.

3- عصر الدولة الأموية.

4- عصر الدولة العباسية والأندلس.

5- عصر الدول المتتابعة إلى هذا العصر.

ويرى عدد من الأدباء والمؤرخين أن التاريخ الأدبيّ وثيق الصلة بالتاريخ السياسيّ والاجتماعي لكل حضارة، لذلك اصطلحوا أن يُقسّموه على حسب العصور التاريخية، والانقلابات الاجتماعية واتفق أكثر كتّابنا أن يقسموا تاريخ أدبنا إلى خمسة أعصر. ومن خلال ما سبق نجد الاتفاق على أثر السياسة في التقسيم كعامل مشترك يأتي معها العامل الديني تارة، والعامل الاجتماعي تارة أخرى، لكنّها تبقى الأساس في التقسيم، وهي كأنما وقفت عند المعنى اللّغوي للتأريخ بأنه التوقيت، فوقّتت الأدب بهذه الأحداث الضخمة، وربطت بينها وبين دراسته ربطًا مُحكمًا، وبذلك سُنّت أول المناهج الحديثة في الدراسة الأدبية.

كما التزم المؤرخون التقسيم الخماسيّ لهذه العصور، واتفقوا على العصر الجاهلي كفترة مستقلة سياسيًا واجتماعيًا ودينيًا، والاختلاف ظلّ مستمرًا في بقية العصور حتى العصر الحديث وتحديد بداياته.

كذلك نجد الارتباط بين الشرق والغرب في هذا التقسيم السياسيّ الذي ربط الأندلس بالعصر العباسي.

Scanned with CamScanner

وقد سلطنت هذه النظرية وهذا التقسيم السياسي في مظهرين:

الأول: التزام وزارات المعارف في الأقطار العربية لهذا التقسيم في مدارسها، واقتناع هذه الأجيال بهذا التقسيم كنوع من المسلّمات.

الثاني: اعتماد الكتب المؤلفة في التأريخ للحياة الاجتماعية والعقلية للمسلمين على هذا التقسيم والسير على خطاه، حتى أصبح هذا التقسيم الطريق الذي لا طريق غيره للتأريخ الأدبي والاجتماعي والعقلي.

أمّا من أيّد هذا التقسيم فله حججه، حيث يرى أنّ المحطات السياسية حاضرة في العصور السابقة، فالجاهلي ينتهي مع الإسلام، وصدر الإسلام ينتهي ببداية الأموي، وانتقال الخلافة الراشدة إلى الأمويين، والعصر العباسي حتى السلاجقة، وفي عالم دويلات السلاجقة كان حضور الخلافة العباسية رمزيًا في الأمارات، والعصر المملوكي تميز باختلاف تام، كما أن الحضور الأدبي انعكاس للحضور السياسي.

وأورد مؤيّدوا التقسيم السياسي عددًا من المميزات، من أهمها:

1- أن معرفة التاريخ وظروف العصر تُعين الباحث على فهم الأدب، والوقوف على اتجاهاته وتتبع تطوراته.

2- بمعرفة المذاهب السياسية للشعراء نستطيع فهم أشعارهم.

3- للسياسة أثر في رواج بعض الفنون الأدبية وضعف البعض.

من الخصائص التي تميّز التقسيم السياسي عن غيره:

1- دراسة مدى تأثير العمل الأدبي أو صاحبه بالبيئة الزمانية والمكانية ومدى تأثيره فيهما.

2- دراسة الأطوار التي مرّ بها فنٌّ من الفنون الأدبية.

3- معرفة مجموعة الآراء التي أُبديت في عمل فني أو في صاحبه للموازنة بين هذه الآراء.

4- التأكّد من نسبة النص لقائله، والديوان لمؤلفه.

ولابدّ من امتلاك القدرة على التذوق الفني لدى من يقوم بتطبيق المنهج التاريخي السياسي؛ ليتمكن من التمييز بين النصوص الأدبية حسب خصائص عصرها.

كما ظهر عدد من منتقدي هذا التقسيم السياسي، ففي العقد الثاني من القرن العشرين كان النقد العنيف لهذا التقسيم السياسيّ، عندما سمّوا العصر الثاني للآداب العباسية عصر الانحطاط، من غير تحقيق ولا تثبيت فجنوا على الأدب العباسي؛ إذ نبغ فيه من الشعراء الرضي والمتنبي وأبو العلاء، ومن الكتّاب ابن العميد وابن عباد والصابي، ومن الفلاسفة الفارابي وابن سينا وابن لوقا، ومن الأدباء أبو هلال وابن المرزبان والآمدي والجرجاني، ومن النحويين ابن خالويه وابن جني وأبو علي الفارسي والسيرافي، فعصر ينبغ فيه هؤلاء وأمثالهم من المؤرخين والجغرافيين والفلكيين لخليق

Scanned with CamScanner

أن يكون عصر رقي ونهضة، لا عصر ضعف وانحطاط في العلوم والآداب. في رفض صريح للتقسيم السياسي، وفصل ما بين الأدب والسياسة من تبعيّةٍ، فليس هناك تطابق تام بينهما، ويطالبون بضرورة العناية بالظاهرة الأدبية فيما وراء العنصر السياسي السطحي القريب، وإنصاف القرن الرابع من وصمة الانحطاط التي لحقته جرّاء التقسيم السياسي.

ومن خلال استعراض الآراء السابقة تتلخص أهم عيوب هذا التقسيم في:

1- اضطراب التقسيم السياسي بين المؤرخين، وإن اتفق غالبيتهم على العصور الخمسة له.

2- لا يمكن اعتماد الفصل التام بين العصور السياسية في الحياة الأدبية، وخاصة مع المخضرمين من الأدباء والشعراء.

3- هذا التقسيم يزعم أنه يدرس الأدب في عصر ما من العصور، ولكنه في الواقع يقصر دراسته على منطقة من المناطق، فهو أشد عناية بعواصم العصور الإسلامية، وحواضرها في حين تهمل الأقاليم الأخرى.

4- إهمال أثر البيئة رغم أثرها الفاعل في الأدب.

5- إهمال الجانب الفني المتعلق بالقيم الشعورية والتعبيرية.

6- تعميم الأحكام العامة على كل أبناء العصر مع إهمال أو إغفال المواهب الشخصية.

إن هذا التقسيم قد وقف إزاءه المؤرخون في موقفين، فريق تعرض للتشكيك والنقد والرفض، وفريق يؤيد ويدعو إليه ويتخذه منهجا، وكان لكل فريق حججه ومبرراته، وهذا يجعلنا نتساءل أين نحن من دراسة الأدب؟ وكيف يجب أن تكون؟ وماذا نستطيع أن نفعل حين ندع هذا التقسيم؟ وإلى أي نظرية ندعها؟

Scanned with CamScanner

الفصل الخامس

رواية الشعر الجاهلى وتدوينه

١

رواية العرب للشعر الجاهلى

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن العرب الشماليين نمو الخط النبطى وتطوروا به إلى خطهم العربى منذ أوائل الجاهلية أو لعلهم وصلوا إلى ذلك قبل فجرها ، فقد وُجدت نقوش مختلفة تشهد بذلك، ونرى شعراءهم يشيع عندهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها من مثل قول المرقّش الأكبر [١] :

الدَّارُ قَفْرٌ والرسومُ كما رقَّشَ فى ظهر الأَديم قَلم

ويقال إنه كان يحسن الكتابة وإنه كتب على بعض الرّحال قصيدة له حين وقع أسيراً فى يد بعض العرب[٢] ، ويقول سلامة بن جندل[٣] :

لمن طلَلٌ مثل الكتاب المنمَّقِ خلا عَهْدُهُ بين الصُّلَيْب فمُطْرِقِ

ولعله يقصد بالكتاب الصحيفة ، ويقول لبيد فى مطلع معلقته :

عَفَتِ الديارُ محلُّها فمُقَامُها بِمِنًى تأَبَّدَ غَوْلُها فرِجامُها[٤]

فمدافعُ الرَّيَّان عُرِّىَ رَسْمُها خَلَقًا كما ضمِنَ الوُحِىَّ سِلامُها[٥]

وجلا السيولُ عن الطلول كأَنها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أَقلامُها[٦]

---

(١) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ ، رقش : زين ونمق .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٦/١٣٠.

(٣) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) ص ١٤٦ والصليب ومطرق : موضعان .

(٤) عفت : درست وامحت ، تأبد : توحش ، والمحل : حيث يحل القوم . والمقام : المجلس ، ومنى : موضع بحمى ضرية ، والغول والرجام : جبلان أو موضعان .

(٥) مدافع الريان : موضع ، والرسم : آثار الديار ، وخلقا : دروسا، والوحى : جمع وحى وهو الكتابة ، والسلام : الحجارة الرقيقة.

(٦) الزبر : جمع زبور وهو الكتاب ، وتجد : تجدد .

فهو يشبه رسوم الديار بالوحى أو الكتابة فى الحجارة الرقيقة ، ويقول إن السيول جلت التراب عن الطلول ، حتى لكأنما آثار الديار كتبٌ طمست فأعيد بعضها على بعض وتُرك ما تبيَّن منها ، فهى مختلفة . ويقول الأخنس بن شهاب التغلبى[١] :

لإبنة حِطَّان بن عَوْفٍ منازلٌ كما رقَّش العنوانَ فى الرَّقِّ كاتبُ

ويقول الحارث بن حِلِّزة اليشكرى البكرى[٢] :

لمن الديار عَفَوْن بالحُبْس آياتُهـا كمهارق الفُرْس

ويدور هذا التشبيه كثيراً فى أشعارهم ، مما قد يدل على أن كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة ، بل إن فريقاً منهم ، كما يقول الرواة ، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدثونا عن لقيط بن يعمر الإيادى وعدى بن زيد العبادى[٣] . ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت شائعة فى الحواضر وخاصة فى مكة التاجرة . وفى السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين فى بدر أن يعلِّم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة[٤] ، وكان مَنْ يكتبون بين يديه الوحى وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين فى عقودهم ومعاملاتهم كثيرين[٥] . فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعة فى الجاهلية ، ورُويت أخبار متفرقة تدل على أن بعض الشعراء استخدمها بلاغاً شعرياً لقومه فى بعض ما حزَبه من الأمر[٦] . وغلا كر نكو فزعم أن نظم الشعر فى الجاهلية كان مرتبطاً بها وبمعرفتها بدليل اختلاف القراءات للفظة الواحدة ، وأيضا فإن استخدام الشاعر لبعض القوافى النادرة يدل على أنه كان يلاحظ العين أكثر مما يلاحظ الأذن[٧] .

---

(١) المفضليات ص ٢٠٤ والرق : الجلد الرقيق .
(٢) المفضليات ص ١٣٢ والحبس بتثليث الحاء : موضع ، وآياتها : علاماتها ، والمهارق : الصحف .
(٣) أغانى ٢/١٠١ وطبعة الساسى ٢٠/٢٤ والشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ١/١٨٠
(٤) طبقات ابن سعد ١/٢ : ١٤ .
(٥) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٢ .
(٦) انظر الباب الثانى . فى كتاب مصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد (طبع دار المعارف) .
(٧) انظر مقالة له بعنوان The Use of Writing for the Preservation of Ancient Arabic Poetry نشرت مع مقالات أخرى فى كتاب : A Volume of Oriental Studies to E.G. Browne, Edited by J.W. Arnold.

وأكبر الظن أن اختلاف القراءة إنما نشأ فى عصر التدوين أو بعبارة أخرى فى القرن الثانى للهجرة ، وأيضاً فإن الشعر فن سمعى ، وليس فنًّا بصريًّا .

والحق أنه ليس بين أيدينا أى دليل مادى على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد ، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة فى نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية ، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسَعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء فى حفظ دواوينهم ، إنما حدث ذلك فى الإسلام ، بفضل القرآن الكريم وما أشاعه من كتابة آيه وتحوُّل جمهور العرب معه من أميتهم الكبيرة إلى قارئين يتلون . ولا نكاد نمضى طويلا فى العصر الإسلامى حتى تتحول العربية من لغة مسموعة فحسب إلى لغة مسموعة مكتوبة ، وهو تحول شارك فيه العرب والمستعربون . وكل ما بين أيدينا من روايات عن كتابة بعض الأشعار فى الجاهلية إنما يدل على أن الكتابة كانت معروفة ، وخاصة فى البيئات الآخذة بشىء من الحضارة ، ونقصد المدن مثل مكة والمدينة والحيرة ، ولكنه لا يدل بحال على أنها اتُّخذتْ أداة لحفظ الشعر الجاهلى ودواوينه ، ولو أنهم كان لهم كتاب جمعوا فيه أطرافاً من أشعارهم لما أطلق الله جل وعز على القرآن اسم الكتاب ، فلا كتاب لهم من قبله لا فى الدين ولا فى غير الدين .

أما ما يقال من أن المعلقات كانت مكتوبة ومعلقة فى الكعبة فمن باب الأساطير ، وهو فى حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة المعلقات ، فقد جاء فى العقد الفريد أنه بلغ من شغف العرب بالشعر أن « عمدتْ إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها فى أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهَّبة امرئ القيس ومذهبة زهير . . والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقات »[1] ولو أنهم تنبهوا إلى المعنى المراد بكلمة المعلقات ما لجأوا إلى هذا الخيال البعيد ، ومعناها : المقلَّدات والمسمَّطات ، وكانوا يسمون فعلا قصائدهم الطويلة الجيدة بهذين الاسمين وما يشبههما[2] ، وقد

---

(١) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/١١٩ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٩ .

نفى ابن النحاس الأسطورة فقال : « لم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة[١] » .

ونستطيع أن ندخل فى هذا الباب باب الأساطير ما يُرْوَى عن حماد الراوية من أن النعمان بن المنذر المتوفى سنة ٦٠٢ للميلاد « أمر فنُسخت له أشعار العرب فى الطنوج — الكراريس — ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عُبَيْد (حوالى سنة ٦٧ هـ) قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثَمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة[٢] » ويقول ابن سلام : « وقد كان عند النعمان بن المنذر منه (من شعر العرب فى الجاهلية) ديوان فيه أشعار الفحول وما مُدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه[٣] » . ويكفى أن يكون أصل الخبر حماداً المتهم فى روايته لنشك فيه ، بل إنه يحمل فى أطوائه ما يجعلنا نتهمه ، فهو ينتهى عنده إلى تعليله به كيف أن أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة ، وكأنما ساقه حماد الكوفى لبيان سابقة الكوفة على البصرة فى الشعر القديم والعلم به ، والمنافسةُ بين البلدتين فى هذا الباب معروفة .

وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يُجْمَعْ فى مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول ، وبعد مشاورة بين أبى بكر رضوان الله عليه والصحابة ، فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عندهم فى الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه فى كتاب ، إنما نشأ ذلك فى الإسلام وبمرور الزمن . أما فى الجاهلية فكانوا يعتمدون فيه على الرواية وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها .

ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذى فاض بالشعر الجاهلى إنما هو الرواية الشفوية ، وقد ظلت أزماناً متتالية فى الإسلام ، ويدل على ذلك أقوى الدلالة أن الحديث النبوى ظل فى أغلب أحواله يعتمد على الرواية والمشافهة إلى نهاية القرن الأول للهجرة . وإذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعمدوا إلى تدوينه تدويناً عاماً إلا بعد مرور

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت فى ترجمة حماد ١٠/٢٦٦ .

(٢) راجع الخصائص لابن جنى (طبعة دار الكتب) ١/٣٩٢ ومعجم البلدان لياقوت فى القصر الأبيض .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة دار المعارف) ص ٢٣ .

نحو قرن على الهجرة الشريفة فأولى أن يكونوا قد تبعوا ذلك فى الشعر الجاهلى ، ولم يكن ركناً فى الشريعة الإسلامية ولا كانت تقوم عليه حاجاتهم الدينية الملحة . ومَنْ يرجع إلى شعرهم يجد شعراءهم يذكرون دائماً الرواية وأنها وسيلة انتشاره فى القبائل ، فهى الوسيلة التى كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة ، يقول المسيَّب بن عَلَس[١] :

فلأَهدينَّ مع الرياح قصيدةً ... منى مُغَلْغَلَةً إلى القَعْقاعِ[٢]
تَرِدُ المياه فما تزال غريبةً ... فى القوم بين تمثُّل وسماعِ

فقصيدته تنتشر فى القبائل ، ويرددها الناس مستمعين إليها ومتمثلين بأبياتها ، ويقول عَميرة بن جُعَل نادماً على هجائه لقومه وشيوعه فى العرب وأنه لم تعد له حيلة فى رده[٣] :

نَدِمْتُ على شَتْم العشيرة بعدما ... مضتْ واستتبَّتْ للرواة مذاهِبُهْ
فأَصبحتُ لا أَسْطيع دَفْعًا لما مضى ... كما لا يردُّ الدَّرَّ فى الضَّرْع حالِبُهْ

فرواية الشعر فى العصر الجاهلى كانت هى الأداة الطيعة لنشره وذيوعه ، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافاً هى طبقة الشعراء أنفسهم ، فقد كان مَنْ يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعراً يروى عنه شعره ، وما يزال يروى له ولغيره حتى ينفتق لسانه ، ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن . ونصّ صاحب الأغانى على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض ، وقد بدأها بأوس بن حجر التميمى ، فعنه أخذ الشعر ورواه حتى أجاد نظمه زهيرُ بن أبى سلمى المزنى ، وكان له راويتان كعب ابنه والحطيئة ، وعن الحطيئة تلقن الشعر ورواه هُدْبة بن خَشْرم العُذْرى ، وعن هدبة أخذ جميل صاحب بثينة ، وعن جميل أخذ كثيِّر صاحب عزَّة[٤] .

---

(١) المفضليات ص ٦٢ .
(٢) مع الرياح : يريد أنها تذهب كل مذهب ، مغلغلة : نافذة تنفذ فى الناس ونسلك إليهم السبل البعيدة .
(٣) الشعر والشعراء ٦٣٢/٢ وقارن مع المفضليات ص ١٠٠ .
(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩١/٨ .

نحن إذن بإزاء مدرسة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل فى طبقات أو حلقات ، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلى لاحقتها ، ومن أهم ما يلاحظ فى هذه المدرسة أن شعراءها أو رواتها كانوا من قبائل مختلفة فى شرقى الجزيرة وغربيها . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروى خلفهُم شعر سلفهم ، ونصّ القدماء على ذلك فى غير شاعر ، فقالوا إن الأعشى كان راوية لخاله المسيَّب بن علس وكان يأخذ منه[١] وقالوا إن أبا ذؤيب الهذلى كان راوية لساعدة ابن جُؤْية الهذلى[٢] ، ومَنْ يقرأ ديوان الهذليين يجد أواصر فنية قوية تجمعهم وتربط بينهم . وعلى هذا القياس توجد وشائج واضحة بين شعراء قيس بن ثعلبة ، فطرفة يروى للمرقش الأصغر عمه ويأخذ عنه ، ويروى هذا عن عمه المرقش الأكبر ويحتذى على شعره ، وأيضاً فإن طرفة كان يروى عن خاله المتلمِّس الذى رُبِّى فى أخواله من بنى يشكر . وقد لا تكون القبيلة الجامعةَ الواصلة ، فقد يجمع بين الشعراء سلوك فى الحياة كالصعاليك أو الفرسان فيروى بعضهم لبعض ، ويأخذ بعضهم عن بعض ، على نحو ما نلاحظ عند تأبط شرًّا والشنفرى أو عند أبى دؤاد الإيادى وزيد الخيل .

ولو أن الرواة لم يرووا لنا هذه الصلات الجامعة أو الرابطة بين الشعراء الجاهليين لحدسناها حدساً من اتفاقهم على تقاليد فنية واحدة مهما شرَّقنا وغربنا فى الجزيرة ، وهى تقاليد جاءت من تمسكهم بنماذج أسلافهم لا يحيدون عنها ولا ينحرفون ، فهى دائماً الإمام المتبع ، وهمّ كل شاعر أن يتقن معرفتها عن طريق ما يحفظ من شعر أستاذه وشعراء قبيلته ، بل أيضاً شعراء القبائل الأخرى . ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشعر ، فقد كان يشركهم فى ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم ، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم فى حروبهم كما يسجل مثالب أعدائهم ، وإلى ذلك أشار بعض بنى بكر معيِّراً تغلب لكثرة ترددها لقصيدة واحدة هى معلقة عمرو بن كلثوم ، وكأن ليس لها شعر سواها ، يقول[٣] :

أَلْهَى بنى تَغْلِبٍ عن كل مكرمةٍ ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ

(١) الشعر والشعراء ١/١٢٧ والموشح للمرزبانى ص ٥١ .

(٢) الشعر والشعراء ٢/٦٣٥

(٣) أغانى ١١/٥٤ .

يروونها أبدًا مذ كان أولهم يا للرِّجال لشعرٍ غير مشئوم

ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم الذين يُشيعون شعر شعرائها ، فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخرى يشتركون معهم فى إشاعته ، إذ كان بينهم جم غفير من الحفظة ، كانوا يتناقلون الشعر وينشدونه فى محافلهم ومجالسهم وأسواقهم ، إذ لم يكن لهم شاغل سواه ، وكان يسجل مآثرهم ومثالبهم وأنسابهم وأيامهم وأخبارهم ، ومن ثَمَّ قال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »[١] فهو كل علمهم وكل حياتهم .

وجاء الإسلام فانكبّوا على تلاوة القرآن الكريم ، ولكن لم ينسوا شعرهم أبداً ، حتى منذ بدء الدعوة الإسلامية ، فقد كان الرسول عليه السلام يستحث حسان ابن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها ، وكان كثيراً ما يستنشد الصحابة الشعر ، حتى شعر أعدائه من مثل أمية بن أبى الصَّلْت ، قال الشريد بن سُوَيد الثقفى : « استنشدنى النبى صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبى الصلت فأنشدته ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يقول : هيه ، هيه ، حتى أنشدته مائة قافية »[٢] . وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلى ، وكان يتمثل به أحياناً فى خطابته كخطبته المشهورة فى يوم السَّقيفة ، وكذلك كان عمر ، وقلما كان يترك وافداً عليه من قبيلة دون أن يسأله عن بعض شعرائها ، وفيه يقول ابن سلام : « كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »[٣] .

وهذا نفسه شأن الصحابة جميعاً ، فقد كانوا كثيراً ما يتناشدون الأشعار ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتهم ، قال جابر بن سمرة : « جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار فى المسجد وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٤] .

ومعنى ذلك أن رواية الشعر الجاهلى كانت مستمرة فى صدر الإسلام ، وقد أخذت تظهر عوامل تشدّ من أزرها وتقوى من شأنها ، فقد أخذت تنشأ منذ

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٢ .

(٢) ابن سعد ٣٧٦/٥ وخزانة الأدب ٢٢٧/١ والمزهر ٣٠٩/٢ .

(٣) البيان والتبيين ٢٤١/١ .

(٤) طبقات ابن سعد ٢/١ : ٩٥ وما بعدها .

تدوين عمر للدواوين حاجة شديدة لمعرفة الأنساب ، إذ كانت تلعب دوراً مهماً في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خطّطوها مثل البصرة والكوفة . وكان بين العرب قديماً من يشتهرون بمعرفة الأنساب ، ولكن في هذا العصر الإسلامي إلى تمامه يصبح لهؤلاء النسابين شأن خطير ، إذ كان العرب يرجعون إليهم في معرفة أصولهم ، وكثيراً ما كانوا يسوقون لهم قطعاً من الشعر تحدد نسبهم ، ومن أشهرهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل ودغفل والنّسّار بن أوس العذري[١] .

ونحن لا نصل إلى الحرب التي نشبت بين علي ومعاوية حتى تشتعل العصبيات القبلية اشتعالا لم تَخْبُ نيرانه حتى نهاية العصر الأموي ، وكان الشعر الوقودَ الجزل لهذه العصبيات ، فأخذت كل قبيلة تُعْنَى برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب خصومها ، ويتناقله أبناؤها ، فهو جعبة سهامهم التي يوجهونها إلى خصومهم . ومن غير شك كان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي ، فقد حملته القبائل طوال القرنين الأول والثاني حتى أدوه إلى العلماء الذين عنوا بتدوينه[٢] .

وكانت الدولة الأموية عربية النزعة ، فعملت على حفظ هذا التراث ، بما كانت تروي منه ، نجد ذلك عند معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء ، وكانوا كثيراً ما يسألون وفود القبائل التي تفد عليهم عن بعض شعرائها ، وقد ينشدون بيتاً ويسألون عن صاحبه وقصيدته ، ومن تحسن إجابته تحسن له جائزتهم[٣] ، وكان أبناؤهم على غرارهم « وكانوا ربما اختلفوا في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيبردون فيه بريداً إلى العراق »[٤] يسألون علماءها عن صحة الأمر فيه وصوابه . وأقام لهم آباؤهم غير مؤدب يروّيهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها ، ويلقانا هؤلاء المؤدبون في كل مكان يؤدبون الناشئة ، وفي البيان والتبيين فصل طويل يحصى فيه أسماءهم .

ومما يدخل في عناية الأمويين بالشعر الجاهلي ما يُرْوَى عن معاوية من شغفه بالمسامرة ومعرفة أخبار الماضين ، مما جعله يستدعي عُبيد بن شَرِيّة الجرهمي من

---

(١) انظر في هؤلاء النسابين وفيما نسوقه هنا من اتصال رواية الشعر الجاهلي حتى القرن الثاني الباب الثالث من كتاب مصادر الشعر الجاهلي .

(٢) راجع مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٣١ وما بعدها .

(٣) انظر الأغاني ٣/٩١ .

(٤) التصحيف والتحريف للعسكري ص ٤

صنعاء اليمن ، ويتخذه سميراً له يسأله عن الأخبار المتقدمة والملوك السالفة ، وهاله ما عنده من العلم بذلك ، فاتخذ غلماناً يقيدون فى دفاتر ما يذكره من سير الملوك وأخبارها ووقائع العرب وأيامها فى الجاهلية وأشعارها[١] .

ومنذ وقت مبكر فى صدر الإسلام نرى القصاص يجلسون للعظة فى المسجد الجامع ، وكانوا كثيراً ما ينثرون الأشعار الجاهلية التى تتصل بوعظهم فى تضاعيف قصصهم ، وقد أخذت تنشأ جماعة مثل أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير تُعنى بغزوات الرسول وما قيل فيها من الشعر ، وأخذ يظهر بجانبهم جماعة تعنى بأخبار العرب الماضين وما كان يجرى على ألسنة شعرائهم . وفى أثناء ذلك كان الشعراء الإسلاميون أنفسهم يعنون عناية شديدة برواية الشعر القديم ، وبلغ من اهتمام بعضهم بذلك أن أصبح مؤدبا للناشئة يرويها الشعر القديم على نحو ما نعرف عن الكميت والطرماح[٢] . ولم يكن هناك شاعر مبرز إلا وهو يروى للجاهليين وينشد من شعرهم ، وفى كتب الأدب إشارات مختلفة إلى ما أخذه العلماء عن أمثال ذى الرمة والفرزدق وجرير ورؤبة من هذا الشعر[٣] ، وصوّر الفرزدق مدى روايته ومعرفته للشعر الجاهلى ، فقال فى بعض قصيده[٤] :

وهب القصائدَ لى النوابغُ إذ مضوا ... وأبو يزيد وذو القروح وجَرْوَلُ[٥]

والفحلُ علقمةُ الذى كانتْ له ... حُلَلُ الملوك كلامُه لا يُنْحَلُ

وأخو بنى قيسٍ وهُنَّ قَتَلْنَه ... ومُهَلْهِلُ الشعراء ذاك الأوَّلُ[٦]

والأعشيان كلاهما ومُرَقِّشٌ ... وأخو قُضاعةَ قولهُ يُتَمَثَّلُ[٧]

وأخو بنى أَسَدٍ عَبِيدٌ إذ مضى ... وأبو دُوَادٍ قوله يتنخَّلُ

---

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى ص ١٥٩ والفهرست ص ١٣٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٥١ ، ٢/ ٣٢٣ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٠٠ والديوان (طبع القاهرة) ص ٧٢٠ .

(٥) النوابغ : النابغة الذبيانى والجعدى والشيبانى . وأبو يزيد : المخبل ، وذو القروح : امرؤ القيس ، وجرول : الحطيئة .

(٦) أخو بنى قيس : طرفة ، وهن قتلنه : يريد القوافى ، لأنه قتل بسبب بعض أهاجيه .

(٧) الأعشيان : أعشى بنى قيس وأعشى باهلة . وأخو قضاعة : أبو الطمحان القينى .

وابنا أَبى سُلْمَى زهيرٌ وابنُــه ... وابن الفُرَيْعَة حين جَدَّ المِقْوَلُ[١]
والجعفرىُّ وكان بِشْرٌ قبلــه ... لى من قصائده الكتابُ المُجْمَل[٢]
ولقد ورثتُ لآل أَوسٍ منطقًا ... كالسَّمِّ خالط جانبيه الحَنْظَلُ[٣]
والحارثىُّ أخو الحِماس ورِثْتُهُ ... صَدْعًا كما صَدَعَ الصَّفَاةَ المِعْوَل[٤]

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق عربى فى العصر الإسلامى وما وليه من أوائل العصر العباسى إلا وهو يروى الشعر الجاهلى ، إن هو تحدث أو وقف خطيباً ، وتمثُّل الحجاج بالشعر فى خطابته ذائع مشهور . وإذا كنا لاحظنا فى الجاهلية أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم كانوا عادة من الشعراء ، فإننا نلاحظ فى العصر الإسلامى نشوء طائفة من الرواة ، لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر ، فهم لا يروونه لغرض تعلمه ، وإنما يروونه لغرض نشره فى الناس وإذاعته ، وإليهم يشير جرير بقوله فى وصف بعض قصائده[٥] :

خروجٍ بأَفواه الرواة كأَنها ... قَرَا هُنْدُوانىٍّ إذا هُزَّ صَمَّما[٦]

وفى أخباره أنه كان له رواة يلزمونه ويأخذون عنه شعره ، وكذلك كان الفرزدق . ولم يكونوا يروون شعرهما فحسب بل كانوا ينقحونه ويهذبونه ، فعن شيخ من هذيل قال : « جئت الفرزدق . . ودخلت على رواته فوجدتهم يعدلون ما انحرف من شعره . . ثم أتيت جريراً . . وجئت رواته وهم يقوِّمون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد »[٧] . وفى رأينا أن ظهور هذه الطبقة من الرواة إنما نشأ من العناية الشديدة برواية الشعر القديم والحديث ، وكأنما لم يعد للناس من شغل وراء هذه العناية ، فمنهم من يتخصص برواية شعر المعاصرين ومنهم من يتخصص برواية الشعر الجاهلى كيونس بن متى راوية الأعشى[٨] .

---

(١) ابن الفريعة : حسان بن ثابت .
(٢) الجعفرى : لبيد ، وبشر هو بشر بن أبى خازم .
(٣) أوس : أوس بن حجر .
(٤) الحارثى : النجاشى .
(٥) النقائض ص ٤٣٠ .
(٦) قرا : متن ، والهندوانى : السيف .
(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٤/٢٥٦ وما بعدها .
(٨) راجع فى تحقيق اسم هذا الراوى مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٣٨ وما بعدها .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل أوضح الدلالة على أن رواة لا يحصيهم العدّ حملوا الشعر الجاهلى إلى عصور التدوين ، فقد حافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد وخاصة الشعراء والرواة ، وبذلك أسلموه للأجيال التالية ، وإن كان قد شابه شىء من الانتحال والوضع على نحو ما سنعرض لذلك فى غير هذا الموضع ، ومن غير شك سقط منه كثير فى أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمنى الطويل ، يقول ابن سلام : « لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقلّ ذلك وذهب عليهم منه كثير »[1] .

٢

رواة محترفون

ونحن لا نصل إلى نهاية العصر الإسلامى ومطلع العصر العباسى حتى تنشأ طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلى عملا أساسيًّا لهم ، وتختلط فى هذه الطبقة أسماء عرب وموال ، وأسماء قرّاء للقرآن الكريم وغير قراء ، وهم جميعاً حضريون ، عاشوا غالباً فى البصرة والكوفة . ولم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجردة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخبار عن الجاهلية وأيامها ، وكانوا يتخذون لأنفسهم حلقات فى المسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاب وفى أثناء ذلك يشرحون لهم بعض الألفاظ الغريبة ، أو يفسرون لهم ظروف النص التاريخية .

وأهمُّ هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر ومحمد ابن السائب الكلبي والمفضل الضبي ، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو ، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحياناً ليستقى الأشعار والأخبار الجاهلية من ينابيعها الصحيحة ، وكان بين البدو أنفسهم مَنْ هاجر إلى الكوفة والبصرة حيث هؤلاء الرواة العلماء ليمدهم بما يريدون . وقد أظهروا فى عملهم مهارة منقطعة النظير ، إذ تحولوا يجمعون المادة الجاهلية جميعها ، وكان من أهم الأسباب فى ذلك تفسير

---

(١) ابن سلام ص ٢٢ .

ألفاظ القرآن الكريم ، فقد جرت عادة المفسرين منذ ابن عباس على الاستشهاد بالشعر الجاهلى فى شرح ألفاظ الذكر الحكيم ، وأيضاً فقد انبرت جماعات تحاول وضع قواعد العربية وجمع ألفاظها ، واعتمدت فى ذلك اعتماداً شديداً على الشعر الجاهلى فهو مادة اللغة ومادة قواعدها وقوانينها التى ينبغى أن تتَّبع . على أن هاتين الغايتين سرعان ما انفصلتا عن عمل الرواة ، وأصبحوا يقصدون لجمع هذا الشعر فى ذاته ومن أجل نفسه ، وقد حملته إليهم الموجة الحادة من روايته فى أثناء العصر الإسلامى ، ومن المهم أن نعرف أنهم قلما يذكرون مَنْ حملوا عنهم هذا الشعر ، فهم يغفلون أسانيدهم إلا قليلا[١] .

ولا نكاد نمضى فى العصر العباسى حتى يكوّن هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين : مدرسة فى الكوفة ومدرسة فى البصرة ، وعُرف الأولون بأنهم لا يتشددون فى روايتهم تشدد الأخيرين ، ومن ثم تضخمت رواياتهم ودخلها موضوع ومنتحل كثير . ولعل من الطريف أن نعرف أن الكوفة عُرفت فى الحديث النبوى بالوضع والانتحال أيضاً حتى كان مالك بن أنس يسميها دار الضَّرْب يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تُضْرَبُ الدراهم والدنانير وتصنع . يقول أبو الطيب اللغوى : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله وذلك بيِّن فى دواوينهم »[٢] . وندَّد بهم البصريون كثيراً ، وبادلهم الكوفيون نفس التنديد ، فكان كل منهما يشكِّكُ فى الآخر[٣] ، ولكن إذا صفينا هذه التشكيكات والتنديدات اتضح لنا أن رواية البصرة فى جملتها أوثقُ من رواية الكوفة . وليس معنى ذلك أن رواة الكوفة فى الجملة كانوا متهمين بخلاف رواة البصرة ، فبين الطرفين جميعاً متهمون ، وموثَّقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحرى .

وربما كان السبب الحقيقى فى تقدم البصرة على الكوفة فى الرواية أن رأس رواتها وهو أبو عمرو بن العلاء كان أميناً ، بينما كان رأس رواة الكوفة حماداً ، وكان متهماً كثير الوضع ، لا يوثَق بما يرويه . وكان أبو عمرو من مؤسسى المدرسة النحوية فى البصرة ، وأحد القراء السبعة الذين أُخذتْ عنهم تلاوة الذكر الحكيم ، وُلد سنة ٧٠ للهجرة ، وتوفى سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩ : « وكان أعلم الناس بالغريب

---

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٥٥ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٧٤ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلى ٤٣٤ وما بعدها .

والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس وكانت كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف . . ثم إنه تقرّأ أى تنسك فأحرقها»[١] وهو إحراق لايغير من الأمر شيئاً فإن ما رواه حمله عنه تلاميذه البصريون، وكان إمامهم وقدوتهم . ويحكى عنه أنه قال : « ما زدتُ فى شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، يعنى ما يُرْوَى للأعشى من قوله :

وأنكرتْنى وما كان الذى نكرتْ من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصلَعا »[٢]

وحاول بعض الباحثين التشكيك فى روايته لهذا الاعتراف[٣] ، وهو اعتراف يوثق روايته ويزيدها قوة، وفى سيرته ما يدل دلالة قاطعة بأنه كان ثقة ؛ فقد كان تقيّاً صالحاً ، وكان أحد الأعلام الذين أُخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم . أما حماد رأس رواة الكوفة فكان من الموالى ، وُلد سنة ٩٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ ويقال إنه : « كان فى أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليكَ واللصوص ، فنقبَ ليلة على رجل ، فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه ، فبلغ فى العلم ما بلغ »[٤] وربما كان مما يصور هذا العلم ومداه ما يُرْوَى عن مروان بن أبى حفصة من قوله: « دخلت أنا وطُرَيْح ابن إسماعيل الثقفى والحسين بن مُطَير الأسدى فى جماعة من الشعراء على الوليد ابن يزيد (١٢٥ — ١٢٦) هـ وهو فى فُرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعراً وقف الوليدَ بن يزيد على بيت بيت من شعره وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعراء ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا حماد الراوية[٥] » ويُرْوَى عن الهيثم بن عدى أنه كان يقول : « ما رأيت رجلا أعلم بكلام العرب من حماد »[٦]. وهذه المعرفة الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها جعلتهم يطلقون

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٣٢١ .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب)٣/ ١٤٣.

(٣) انظر مقالة مرجليوث The Origins of Arabic Poetry فى صحيفة الجمعية الآسيوية الملكية عدد يولية سنة ١٩٢٥ ص ٤٢٩ وتاريخ الأدب العربى لبلاشير ١/ ١١١ .

(٤) الأغانى ٦/ ٨٧ .

(٥) الأغانى ٦/ ٧١ .

(٦) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ١٠/ ٢٦٥ .

اسم الراوية علماً عليه ، ويروى أن الوليد بن يزيد سأله بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : « بأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أُنْشَدُ شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من المحدث ، فقال الوليد : إن هذا العلم وأبيك كثير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال كثيراً ، ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام ، قال : سأمتحنك فى هذا ، وأمره بالإنشاد ، فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكّل به مَن استحلفه أن يصدقه عنه ، ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمئة ألف درهم »[١] . وقد يكون فى هذا الخبر ضرب من المبالغة ، غير أنه يصوِّر مدى ما استقر فى أذهان معاصريه عن معرفته وروايته للشعر الجاهلى .

ومن سوء حظ الكوفة أن كان هذا الراوية البارع فاسد المروءة فاسقاً ماجناً زنديقاً[٢] ، وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر وحوكه[٣] فكان ينظم على لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به ، وكثُر منه ذلك حتى عُرف به واشتهر ، يقول الأصمعى : جالسته فلم أجد عنده ثلاثمائة حرف ولم أرْضَ روايته ، ويقال إنه مدح بلال بن أبى بردة المتوفى بعد سنة ١٢٦ بقصيدة ، وكان ذو الرمة حاضراً ، فقال له : إنها ليست لك ، وسرعان ما اعترف بأنها جاهلية[٤] ويقال إنه قدم عليه مرة ، فقال له : ما أطرفتنى شيئاً ؟ فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة بمديح أبى موسى الأشعرى (جد بلال) فقال بلال : ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى شعرَ الحطيئة ! ولكن دعها تذهب فى الناس[٥] وقصته فى مجلس أمير المؤمنين المهدى مع المفضل الضبى مشهورة ، فقد زاد ثلاثة أبيات فى مطلع قصيدة زهير : (دع

---

(١) الأغانى ٦/٧١ ومعجم الأدباء ١٠/٢٥٩.

(٢) الحيوان ٤/٤٤٧ والأغانى ٦/٧٤ وأمالى المرتضى ١/١٣١ ولسان الميزان ٢/٣٥٣، ٣/١٧٣ .

(٣) المزهر ٢/٤٠٦ حيث يذكر أن الأصمعى روى شيئاً من شعره، وانظر الأغانى ٥/٢٠٩ حيث يروى له أبياتاً محكمة الصنعة.

(٤) الأغانى ٦/٨٨ .

(٥) طبقات فحول الشعراء ص ٤٠ — ٤١ وحاول ناصر الدين الأسد أن يصحح نسبة القصيدة للحطيئة لرواية المدائنى ورواة ديوان الحطيئة لها ، ولكن ذلك لا يكفى لصحة نسبها .

النثر الجاهلي

النثر هو كلام اختيرت ألفاظه وانتقيت تراكيبه وأحسنت صياغة عباراته بحيث يؤثر في المستمع عن طريق جودة صنعته. فهو يختلف عن الكلام العادي الذي يتكلم به الناس في شؤونهم العادية. وأنواع النثر الجاهلي هي : الخطابة والأمثال والحكم والقصص وسجع الكهان. وسجع الكهان يتصف بقصر جمله وكثرة غريبه والتوازن في عباراته، ويحرص الكاهن على إخفاء كلامه باتباع هذا الأسلوب، والخطابة من أبرز أنواع النثر في العصر الجاهلي، وتتلوها من ناحية الأهمية:الأمثال،لسيرورتها بين عامة الناس وخاصتهم ولهذا فسنتناول هذين النوعين بشيء من التفصيل.

أ ـ الخطابة :

الخطابة كلام جيد المعاني متين الأسلوب مؤثر في من يستمع إليه، يخاطب به جمهور من الناس، بهدف استمالته إلى رأي معين، أو إقناعه بفكرة، أو إرشاده إلى طريق يسير فيه، أو منعه من الانحراف في ضلالة. والخطبة شائعة بين الناس في العصر الجاهلي؛لأنهم يحتاجون إليها في حياتهم العامة وأكثر ما تقال في أماكن اجتماعاتهم مثل الأسواق أو اجتماعهم لحرب.

دواعيها: والدواعي إلى الخطابة كثيرة متنوعة، فهم يحتاجون إلى حث المقاتلين على القتال في حالة الحرب كما فعل هانيء بن مسعود الشيباني في يوم ذي قار، ويحتاجون إلى الخطابة في تهنئة الملوك كما فعل عبدالمطلب بن هاشم في تهنئة سيف بن ذي يزن عندما طرد الأحباش من اليمن، ومن دواعيها التفاخر بين حيين، والدعوة إلى السلم عندما تمل الحرب. ومن دواعيها التعزية والنصح والإرشاد.

والخطبة في الجاهلية لها دور فعال في تهذيب الناشيء وتبصير الكبير؛

Scanned with CamScanner

لأنها تشتمل على المثل السائر والحكمة الصائبة. وهي تكون طويله وقصيرة ولكنهم يفضلون الخطبة التي تجمع المعنى الكثير تحت اللفظ القليل، وقد يلجأ الخطيب إلى الخيال ليستميل المستمعين أو يخوفهم.

أسلوبها: أسلوب الخطبة في الجاهلية يغلب عليه السجع، فالخطبة تتكون من جمل قصيرة مسجوعة متوازنة وهذا ما نجده في خطبة قس ابن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ وفي خطبة عبدالمطلب بن هاشم أمام سيف ابن ذي يزن، وفي خطبة هانىء بن مسعود الشيبانى في يوم ذي قار. وقد تنهج الخطبة أسلوباً مرسلاً لا يقيده السجع ولا التوازن ولا الجمل القصيرة.

صفات الخطيب: لا يتصدى للخطابة إلا من ملك زمام الفصاحة وكان ثابت الجنان، حاضر البديهة، ويمدح الخطيب بجهارة الصوت، وكثرة الريق، وعدم التلفت، ويعاب بالتنحنح والارتعاش، والحصر والعِيّ والتعثر في الكلام، وكثرة مسه للحيته وشاربه[1] ومن عادة الخطيب أن يخطب واقفاً أو يخطب وهو على راحلته، وإذا خطب واقفاً اختار مرتفعاً من الأرض واتكأ على عصا، ومن عادة الخطيب أن يضع العمامة على رأسه.

والخطيب له مكانة ومنزلة تتجاوز منزلة الشاعر: ذلك أن الشاعر قد يتكسب بشعره كما يفعل النابغة والمتلمس وطرفة والأعشى، وأما الخطيب فإنه لا يقول خطبته إلا في الدفاع عن القبيلة أو تبيين حقوقها فالخطيب لا يتكسب بخطبته كما يفعل الشاعر.

ومن خطباء الجاهلية هاشم بن عبد مناف، وابنه عبدالمطلب، وزهير ابن جناب، وقيس بن خارجة بن سنان، وأكثم بن صيفي، وقس بن ساعدة، وهانىء بن مسعود الشيباني، وحاجب بن زرارة، والحارث بن عبّاد البكري.[2]

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٦٥ والحصر والعي: عدم القدرة على الكلام أو التوقف عنه وعدم الإبانة فيه.

(٢) العقد الفريد ٢/ ١١.

Scanned with CamScanner

نماذج من الخطابة

١ ـ خطبة عبدالمطلب بن هاشم أمام سيف بن ذي يَزَن بمناسبة طرد الأحباش من اليمن :

« إن الله تعالى أيها الملك أَحَلَّكَ مَحَلًّا رفيعاً، صعباً منيعاً، باذخاً شامخاً[١]. وأنبتك منبتاً طابت أُرُومَتُهُ وعزت جُرْثُومَتُه[٢]، ونبل أصله وبَسَق فرعه[٣]، في أكرم معدن[٤] ، وأطيب موطن، فأنت ـ أبيت اللعن[٥] ـ رأس العرب وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها[٦] الذي إليه يلجأ العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمل[٧] من أنت سلفه، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته[٨] وسدنة[٩] بيته، أشخصنا إليك الذي أنهجك لكشف الكرب[١٠] الذي فدحنا[١١] ، فنحن وفد التهنئة لا وفود المرْزِئة[١٢] .

---

(١) باذخ وشامخ : عال.

(٢) الأرومة والجرثومة : الأصل.

(٣) بسق : طال وعلا.

(٤) المعدن : المكان الطيب.

(٥) أبيت اللعن : أبيت أن تأتي ما يستدعي لعنك فأنت شريف.

(٦) المعقل : الملجأ.

(٧) يخمل : الخامل هو من لا نباهة له وإنما يختفي ويسقط.

(٨) الذمة : العهد.

(٩) سدنة بيته : خدام بيته.

(١٠) الكرب : الشدة.

(١١) فدحنا : الفادحة : النازلة، وفدحنا : كان ثقيلاً علينا.

(١٢) المرزئة : المصيبة وقد تكون المصيبة في المال. والخطبة في العقد الفريد ٢/٢٤.

Scanned with CamScanner

٢ ـ خطبة قس بن ساعدة الإيادي[١] في سوق عكاظ :

«أيها الناس اسمعوا وعوا : من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج[٢]، ونهار ساج[٣]، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر[٤]، وبحار تزخر، وجبال مرساة وأرض مُدْحَاة، وأنهار مجراةٌ. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعِبَراً، ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمُقَام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟ يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه إن لله ديناً هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً، ثم أنشأ يقول:

في الذَّاهِبِينَ الأولِيـ ـنَ من القرون لنا بصائرْ
لما رأيتُ مَوَارِداً للموت ليس لها مصَادِرْ
ورأيت قومي نَحوَهَا يمضي الأكَابِرُ والأصَاغِرْ
لا يرجعُ الماضِي إليَّ ولا من الباقينَ غَابِرْ[٥]
أيقنتُ أني لا محالـ ـةَ حيثُ صارَ القومُ صَائِرْ[٦]

٣ ـ خطبة أكثم بن صيفي أمام كسرى[٧]

«إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها

---

(١) هو قس بن ساعدة بن عمرو من بني إياد من حكماء العرب وخطبائهم، توفي سنة ٢٣ ق هـ.

(٢) داج: مظلم.

(٣) ساج: ساكن دائم.

(٤) تزهر: تتلألأ.

(٥) الغابر: الباقي.

(٦) الخطبة في الأوائل ١/١٠٧.

(٧) هو أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث التميمي عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام ورحل قاصداً الرسول صلى الله عليه وسلم وتوفي في الطريق سنة ٩ هـ. يعتبر من المعمرين.

Scanned with CamScanner

نفعاً، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها، الصدق مَنْجَاة والكذب مَهْوَاة، والشر لجَاجَة[1]، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء[2]، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حسن الظن وَرْطَة، وسوء الظن عِصْمَة، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي/ من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء، شر البلاد بلاد لا أمير بها، شر الملوك من خافه البريء، المرء يعجز لا المَحَالة[3] أفضل الأولاد البررة، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة. أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل، حسبك من شر سماعه، الصمت حُكْم[4] وقليل فاعله، البلاغة الإيجاز، من شدد نفَّر ومن تراخى تألف[5].

ب ـ الأمثـــال :

الأمثال أقوال سائرة بين الناس تُشَبَّهُ فيها أحوال منظورة مشاهدة بأحوال سابقة لها، والذي يجمع بين الحال السالفة والحال القائمة هو المماثلة بينهما أي المشابهة، ويهدف المثل إلى التعليم أو التنبيه أو التذكير، فالصغير والجاهل يتعلم بواسطة الأمثال، والكبير ينتبه إذا سمع المثل فيسترشد به والغافل يتذكر ما مضى من حوادث التاريخ، والذي يسهل التعليم بواسطة الأمثال أن الأمثال تُحْفَظ بسهولة.

والأمثال تصور تجارب العرب في حياتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية، فهي حصيلة تاريخ طويل بجميع فروعه وتشعباته. كما أنها تصور

---

(١) اللجاجة: تمادي الخصمين في الكلام.

(٢) وطيء: لين سهل.

(٣) المحالة: الحيلة.

(٤) الحكم: الحكمة.

(٥) الخطبة في العقد الفريد ٢/ ١١.

Scanned with CamScanner

البيئة الجاهلية لأنها تنقل بلفظ لا يتغير، ولذلك فهي لون أدبي يتميز بالبقاء على صورته التي قيل فيها، وتعد الأمثال مرآة لحياة الأمة بجميع طبقاتها، فهي لا تمثل عقلية طبقة معينة، وإنما تمثل عقليات الأمة جميعها لأنها تصدر من أي إنسان. بخلاف الحكمة فإنها لا تصدر إلا عن مفكر أو حكيم، وتكون وليدة التعقل وثمرة التجربة، وتهدف إلى النصح والإرشاد والحث على التحلي بمكارم الأخلاق، ويغلب على الأمثال التوازن والسجع وإصابة المعنى وحسن التشبيه، وهي تكون في النثر وتكون في الشعر ولكنها في النثر أكثر، ولا يشترط في المثل أن يدل عليه لفظه فقد يدل عليه اللفظ وقد لا يدل عليه.

والأمثال العربية متشابهة ولكننا نعرف المثل الجاهلي باقترانه بحوادث تاريخية وقعت في العصر الجاهلي، فلكل مثل قصة مثل: صحيفة المتلمس، أو وافد البراجم. فقصتا المثلين تدلان عليهما.

وقد رويت الأمثال الجاهلية ونقلت عن عدد كبير من الخطباء والشعراء وفي مقدمتهم أكثم بن صيفي، وعامر بن الظرب العدواني، وضمرة بن ضمرة النهشلي، والمتلمس الشاعر. ولكن كثيراً من الأمثال لا يعرف قائلها فهي تسير بين الناس ويتناقلونها دون أن يعرفوا قائلها.

والأمثال مبثوثة في كتب الأدب ودواوين الشعراء وكتب التاريخ فإذا قرأنا في كتاب البيان والتبيين وجدناه يشتمل على كثير من الأمثال، وكذلك كتاب الكامل للمبرد، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وكتاب الأمالي لأبي علي القالي، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني. بالإضافة إلى دواوين الشعراء الجاهليين مثل ديوان المتلمس، وديوان أوس بن حجر، وديوان زهير ابن أبي سلمى، وغيرهم من شعراء الجاهلية. أما الكتب المؤلفة في الأمثال فهي كثيرة؛لأن الاهتمام بتدوين الأمثال بدأ في أيام معاوية بن أبي سفيان.

Scanned with CamScanner